حسني عايش*

هل يؤهل التعليم في العالم العربي الفرد للاسهام والتواصل في المجتمع الدولي؟

■ هناك ايجابيات في التعليم في العالم العربي، ولكن سلبياته ومشكلاته كثيرة ومنها:

أولا: لا تزال نظريات التعلّم التي أفرزها العصر الصناعي والطبقي والاستعماري الغربي التي تدّعي أن الذكاء محدود وأنه ذو بعد واحد، وأنه قابل للقياس وأنه غير قابل للنمو، مسيطرة على فكر المدرسة والجامعة في بلاد العرب، مع أن البحوث والدراسات الجديدة تثبت أن الذكاء متعدد الأوجه Multiple Intelligence Theory وغير قابل للقياس لأنه لا يشيء، وأن المخ ينمو ويزداد وزنه وحجمه وعدد التشابكات العصبية فيه بالحرية والثقافة الغنية.

ثانيا: أن معنى ذلك أن نظام التعليم العربي الذي يعتمد تلك النظرية يهدر المواهب والقدرات والقابليات الكثيرة في النشء، بتركيزه على نوع واحد من الذكاء وهو الذكاء اللغوي Linguistic ويا «ريت» يفلح في اطلاقه، ويخرّج طلبة غير قادرين على تلبية المتطلبات النوعية المتعددة للحياة والعمل والعولمة.

ثالثا: وبما أن التعليم العربي – اجمالا – يخلو من البهجة والاثارة أو الفرصة والتحدي فانه يتحول الى محطات أو خبرات غير سارة في حياة المتعلّم، وربما تكون المدارس والجامعات في نظر التلاميذ والطلبة أشبه بمراكز اعتقال نهارية لهم، مما يستدعي اعادة تعليمهم وتهيئتهم في مراكز العمل والتأهيل والتدريب لتخليصهم مما يعلق بهم في المدارس والجامعات من عادات عقلية واجتماعية وثقافية سيئة تعيق اسهامهم في المجتمع الدولي وتواصلهم معه.

رابعا: والتعليم العربي فردي تنافسي لا اجتماعي تعاوني، مع أن الأنشطة الانسانية المختلفة لا تنجز الا بالتعاون وعمل الفريق تذكروا كلمات مثل Tele وConnect و Networking.

خامسا: لا يعرف أب أو أم وبخاصة في الأردن المعلم المسؤول عن تعليم أطفاله في المدرسة الحكومية اللغة أو الحساب أو غيرهما بسبب كثرة التنقلات، وبذلك تصبح المساءلة مستحيلة، ويبقى المتعلم ضعيفا في الأساسيات طيلة حياته ويتجلى ذلك عندما يقابل لشغل وظيفة عصرية فيخسرها على الرغم من أنه قد يكون يحمل بكالوريوس أو ماجستير أو دكتوراه.

سادسا: لا تزال المرافق الأكاديمية والادارية للمدارس والجامعات ومجمل المناهج وأساليب التعليم تعكس العصر الصناعي الذي لم ندخل فيه أصلا، وعلى الرغم من اختراق عصر المعرفة Softonomics للحدود وتبني الاقتصاد ووسائل الاتصال والميديا له.

سابعا: انهيار اعداد المعلمين والمعلمات للمدرسة الالزامية. لم يحل دبلوم التربية التسوقي المشكلة ولم يرتفع مستوى التعلّم والتعليم بعد اغلاق دور المعلمين والمعلمات التي كانت ترعى اعدادهم فيها أكاديميا ومسلكيا. وقد أدى ذلك الى ضعف تعليمي عام يقلل من فرص نجاح أبنائنا وبناتنا في التنافس الدولي على فرص العمل المتاحة.

ثامنا: لا توجد نقابات للمعلمين والمعلمات دون بقية أصحاب الأعمال والمهن، في كثير من البلدان العربية وعلى رأسها الأردن، على الرّغم من حاجة التعليم اليها ليتطوّر. ولا توجد كذلك جمعيات نوعية تضم معلمي المدارس ومعلماتها وأساتذة الجامعات وأستاذاتها حول موضوع معين كاللغة أو الجغرافيا أو الرياضيات ... ترفع سويّته وسويّة أهله.

تاسعا: انني أدعي أن شخصية المتعلّم لا تصاغ ايجابيا داخل الصف، وانما بالأنشطة خارجه أيضا. وبما أن معظم التعليم العربي صفّي فان حصة المتعلّم من المشاركة فيه صفيّا لا تزيد عن دقيقة واحدة في الحصة اذا كان عدد التلاميذ أو الطلبة في الصف أربعين أو أكثر كما هو الحال ووزع وقت الحصة بالتساوي عليهم. فما بالك اذا كان المعلم أو الأستاذ هو المستأثر الوحيد بمعظم وقت الحصة. لقد أعلمني رئيس احدى الجامعات الحكومية قبل أيام أن المتقدمين لشغل وظيفة يحتاج شاغلها الى معرفة جيدة باللغة الانكليزية لم يستطيعوا وصف طريقة وصولهم من بيوتهم الى الجامعة على الرّغم من كونهم يحملون تقدير جيد جدا فيها من احدى الجامعات الأردنية. وكأن القاعدة في تلك الجامعات تقول: خُذ شهادتك اليوم وادرس فيما بعد. وعليه أقترح احداث تغيير جذري في برنامج التعلّم والتعليم دون انتظار حدوث مثل هذا التغيير في أمريكا أو غيرها لنقلّده، وهو تقسيم البرنامج الى يوم أكاديمي أو صفّي، وآخر للنشاط يعبر عنه ويستلهم وظائفه، أو تقسيمه الى مرحلتين: مرحلة الاكتشاف للمبادئ والمعادلات والقوانين أو الأسرار الخاصة بالمادة أو الموضوع في المختبر بمعناه الشامل (حتى في دراسة الفلسفة) ومرحلة الاختراع أو الصنع في المشغل وحتى لصنع الفلسفة لرؤية تلك المبادئ والمعادلات أو القوانين أو الأسرار وهي تعمل: في مقالة أو قصيدة أو نظرية فلسفية أو أداة أو آلة.

عاشرا: بما أن طلبة المدرسة الثانوية الناجحين فيما يسمى بامتحان الثانوية العامة أو التوجيهي أو غيره، يوزّعون قسرا على التخصصات الجامعية حسب معدلاتهم الظرفية لا حسْب قدراتهم وميولهم، ورغباتهم، فان نظام التعليم يئدُها، ويُحجم بذلك فرص الابداع والابتكار في المجتمع، ويجعل الطلبة وذويهم يعانون من هذا التوزيع الاعتباطي ونتائجه النفسية والاجتماعية والاقتصادية وربما السياسية السيئة طيلة حياتهم ويضعف قدرتهم في ميدان التنافس الدولي.

حادي عشر: التعليم العربي ميت ولا حيوية فيه ولا يُعد الخريج للحياة والعمل في عالم متغير وسريع التغيّر، ولأن التنقل المهني صار سمة من سمات العصر والعولمة يمكن القول باطمئنان وبوجه عام ان الجامعات العربية ليست سوى مدارس ثانوية تمنح البكالوريوس والماجستير والدكتوراة لقد أخذنا عن الغرب وبخاصة أمريكا الشكل الخارجي للتعليم فأخذنا المغلف وتركنا الرسالة.

ثاني عشر: لا يؤهل التعليم العربي التلاميذ والطلبة لمواصلة التعلّم مدى الحياة، وبخاصة بعد أن أصبح لكل تخصص في هذا العصر تاريخ لانتهاء الصلاحية Expiry Date.

ثالث عشر: لو كانت البطالة بين الخريجين أو عجزهم عن السباحة في تيار العولمة مؤشرا على مدى نجاح نظام التعليم لكانت الحاجة ماسة الى اغلاق الجامعات العربية أو معظم التخصصات فيها والى أجل غير مسمّى. وربما لن ينتبه بقية العالم الى غيابها لأن مدخلاته من بحوثها أو براءات اكتشافاتها واختراعاتها تكاد تكون معدومة. والدليل عليه عدم وجود أي جامعة عربية بين الخمسمائة جامعة الأولى في العالم، وحصول جامعة القاهرة العريقة على المرتبة الثامنة والثلاثين بين الجامعات الافريقية.

رابع عشر: لا يوجد حتى الآن ولا في أي بلد عربي حسب علمي دليل (e(Guid واحد للطلبة والناس والجامعات يرجعون اليه ويسترشدون به لاختيار التخصصات الحية والمطلوبة محليا وخارجيا، وبحيث يصف الحالة الراهنة لكل عمل أو مهنة من حيث مستوى التعلّم اللازم لها، وطبيعة العمل الخاص بها، وعائداتها، ومدى الطلب عليها والمعروض منها، أي فيما اذا كانت تزدهر أو تتراجع أو تنقرض أو تموت ... Occupational outlook فهل يعبر غياب مثل هذا الدليل عن تقصير الجامعات أم عن تقصير قطاع الأعمال أم عن تقصير كليهما؟ ربما لا توجد دافعية لوضع مثل هذا الدليل بسبب التوزيع الاجباري للطلبة على التخصصات، والعجز عن تطويرها.

خامس عشر: الجامعات العربية تتشدد بالقبول وتتساهل بالتخرّج، لأنه ما من طالب يلتحق بها وبمختلف الدرجات الجامعية الا ويحصل عليها. المطلوب هو العكس وهو التساهل بالقبول والتشدد بالتخرج ومراقبة ذلك بمتطلبات الاعتماد الصارمة وبالاختبارات العشوائية لتحصيل الخريجين من مختلف الدرجات ومساءلة الجامعات المقصّرة، بما في ذلك اعادة اعداد خريجيها أو الرسوم التي دفعوها اليهم، والتعويض عن الفرصة الضائعة.

سادس عشر: أما العجيب الغريب فعجز التعليم العربي والدرجات الجامعية عن احداث تغيير ايجابي في عقلية المتخرج فيه. ومن ذلك أن من يلتحق به متعصبا: عرقيا أو طائفيا أو جهويا أو عشائريا ... أو كان عدوانيا ... يبقى متعصبا أو يظل عدوانيا وربما يزيد تعصبه أو عدوانيته، ربما لأن مؤسسات التعليم مفتوحة أمام مدخلات المجتمع السلبية وتعيد انتاجها بصورة أبشع. ان العبرة في التعليم تكمن في المناهج الخفية في المدارس والجامعات أو ما يجري فيها من تفاعلات بالفعل وليس بالمناهج الرسمية أو المقررة. والا لماذا لا يتقبل طلبتها نتائج الانتخابات ويتعاملون معها؟ لقد حولّوا التلفون الخلوي الى أداة للتعبئة الفورية للقبيلة أو العشيرة أو الطائفة أو الجهة للمشاركة في المشاجرة داخل الجامعة وخارجها. ان هذه العقلية التي يصنعها التعليم الجامعي خطرة جدا على المستقبل الاجتماعي والاقتصادي والسياسي للدولة لأن الجامعة تفكك ولا توحدّ. وان دلّ ذلك على شيء فانما يدل على أن التعليم لا يقود ولا يغيّر وانما هو تابع أو محافظ ويعيد انتاج أمراض المجتمع ولكن بصورة أسوأ، فهل نريد أن يقتفي أطفالنا وأبناؤنا خطانا؟ وان يعيدوا انتاجنا؟ واذا كان الأمر كذلك فما فائدة هذا التعليم وتلك الدرجات الجامعية؟ وكيف سيوفر لهم البقاء (Survival) الناجح في هذا العالم المتعدد والمتنوع؟

سابع عشر: لقد أدى التنوير أو التحديث في أوروبا الى رفض أي قيمة مطلقة أو حتمية دينية، بينما تعيد جامعاتنا انتاج عقلية أوروبا في العصور الوسطى، لأن اقامة كليات الشريعة داخل حرم الجامعات العربية أدى اليها وجعل منهج التفكير الديني أو الغيبي يهزم منهج التفكير العلمي والفلسفي الذي يميز الجامعات. وكأن الصحوة الدينية التي عانينا منها في العقود الأخيرة تؤدي تلقائيا الى الغفلة العلمية والفلسفية والأدبية والفنية، وتحت شعار أسلمة التعليم والفلسفة والآداب والفنون ....

ثامن عشر: ان التعليم العربي بمراحله وأنواعه يعاني مما يسمى بالشلل الرؤيوي وأن ادعى بخلافParadigm / Vision Paralysis ذلك، ويعني هذا الشلل غياب الرؤية المستقبلية أي عجز النظام التربوي عن تجديد نفسه وتغيير نظارته، فلا يفكر في المستقبل الممكن Possibleأو المحتمل Probable أو المفضل (blePrefera) أو المكروه Hateble وما يجب فعله لصياغة المستقبل المرغوب فيه، لان البيئة العربية التعليمية التعلمية تمنع التفكير الناقد والمبدع بالمطلقات والمقدسات والمحرمات وتحجم العقل وتغلقه.

تاسع عشر: ونتيجة لذلك لم يؤد التعليم العربي الى جسر الهوّة الاقتصادية والثقافية أو تضييقها بين البلدان العربية والمتقدمة. ان التقدم الذي يتراءى للناس خادع لأنه أتى من عائدات النفط (وهي ثروة ناضبة وليست دخلا) والديون وليس من عائدات التعليم والانتاج والانتاجية. لم يستطع هذا التعليم تحويل المعلومات التي يقضي وقته في تحفيظها والطلبة في حفظها الى معرفة وبالتالي الى سلع وخدمات اقتصادية واجتماعية وثقافية وسياسية. وبعبارة أخرى فانه يجب عند المقايسة والمقارنة أن نفرّق بين الميزة النسبية (Comparative Advantage) وبين الميزة التنافسية Competitive edge في التعليم والعمل في عصر العولمة أو عصر حرية حركة الأشخاص والسلع والأفكار.

وربما يجب علينا الأخذ بمقولة المستقبليين الشهيرة: فكر عالميا وتصرف محليا (أو أخلاقيا أو بصورة مسؤولة) وأدرك الأمور على نحوٍ جديد الغائبة شكلا ومنهجا وفكرا عن التعليم العربي
Think Globally, act Locally (or) Ethically / Responsibly) and Perceive newly)

عشرون: قد يدعي بعض الذين تخرجوا من المدارس والجامعات العربية والذين أكملوا تعليمهم العالي في أوروبا أو أمريكا أنهم وصلوا الى مراكز ادارية وسياسية عليا اقليميا أو عالميا بفعل هذا التعليم، انني أدعي أن كثيرا منهم لم يصل عن طريقه بل عن طريق النفاق والتزلف أو العلاقات العامة أو ستراسبورغ .

واحد وعشرون: ومع أن أحدا في العالم لا يستطيع التنبؤ الدقيق أو الحتمي بكميات وأنواع التخصصات المطلوبة في المستقبل، الا أن بعض الباحثين مثل Scans يرون أنه يمكن تحديد المهارات والصفات الشخصية المطلوبة لكل خريج مدرسي أو جامعي أيا كان تخصصه، والتي بدونها يفقد صاحبه فرصة العمل المحلي أو العالمي، وهي مهارات وصفات تتألف من طابقين وعدد من المداميك وقد فصلت الحديث عنها في كتابي: امتحان عام ام استغفال للرأي العام؟

1– طابق المهارات، ويتألف من ثلاثة مداميك وهي:

ا – مدماك المهارات الأساسية في القراءة والكتابة والحساب والعمليات الرياضية والكلام أو التعبير وهي ذات معانٍ جديدة مشتقة من متطلبات العصر.

ب – مدماك مهارات التفكير ويتكون من مهارات التفكير الخلاق أو المبدع والتفكير الناقد، ومهارة اتخاذ القرار، ومهارة حلّ المشكلات، ومهارة رؤية الأشياء بعين العقل، ومهارة التعلّم الدائم، ومهارات الاستدلال. ولكل معناه أو متطلباته الجديدة غير المألوفة أو المعروفة في التعليم العربي بعد.

ج – مدماك الصفات الشخصية ويتكون من محصلة المسؤولية وتقدير الذات وادارتها، ومخالطة الناس، والنزاهة والأمانة أو الضمير.

2– طابق الكفايات ويتألف من خمسة مداميك وهي:

ا – مدماك الكفاية في ادارة الموارد من الوقت والمال والمواد والمرافق والموارد البشرية
ب – مدماك الكفاية في التعامل مع الآخرين.
ج– مدماك الكفاية في ادارة المعلومات.
د – مدماك الكفاية في ادارة النظم.
ه– مدماك الكفاية في ادارة التكنولوجيا.

وكما ترون فانه يصعب الحصول على هذه المهارات والصفات صفيا وقد قيل: التعلّم ليس هو الهدف. انه العملية التي تغير العقول والقلوب والأيدي .
Learning is not the goal, Learning is the process.

اثنان وعشرون: ختاما أقول: ان الأجهزة الأمنية أو المخابرات العربية هي التي تدير التعليم في المدارس والجامعات بدءا من التعيين والترفيع والبعثات والبقاء وانتهاء بالنقاش داخل الصف، وداخل الحرم الجامعي بحجة المحافظة على أمن النظام وأمن المواطن. وقد بدأ ذلك مع أول انقلاب عسكري عربي ثم تمأسس لأنه لم يقم أحد أو جهة بالتصدي له. أما النتيجة ففقدان الحرية الأكاديمية في التعليم، وبخاصة الجامعية وتخريج شخصيات ضعيفة ومهزوزة وتابعة يصعب عليها الصمود والسباحة في تيار العولمة الجارف. ان معظم الأمن يتحقق بالحرية وليس بالعكس .. لو كانوا يعلمون. وعزاء العرب انتقال العدوى الى الجامعات الأمريكية بعد أحداث أيلول/سبتمبر سنة 2001م (وان كانت موجهة أولا وبالدرجة الأولى الى الطلاب العرب والمسلمين).

و الخلاصة أن كل واحد في العالم العربي يعرف أن المدرسة والجامعة لا تبنيان على الأرض وانما على المعلم والأستاذ وكل واحد (شايف) الضبع ولكنه يقص على الموكرة ويعمم ليسلم.

وأخيرا أن المرء ليتساءل: هل كان المستشرق الانكليزي روم لاندو صادقا عندما استشهد بأحد الأقوال المأثورة عن استقرار الحكمة في ثلاثة: في عقل الفرنجة، وأيدي الصينيين، وألسنة العرب؟

* كاتب من الاردن
والمقالة في الاصل مداخلة ألقيت في منتدى الفكر العربي الذي عقد في عمان

اديب ديمتري*

مصر الولاّدة ثورتها لا تتوقف:

وداعا لكوكبة من المناضلين الابطال من اجل الحرية والديمقراطية

■ رحل عنا خلال حزيران (يونيو) الماضي ثلاثة من ابرز من انجبتهم الحركة الوطنية المصرية: احمد عبد الله دزة ويوسف درويش واحمد نبيل الهلالي بترتيب رحيلهم. وكانت قد سبقتهم منذ مدة وجيزة كوكبة من رعيل المناضلين القدامى الكبار وهم طه سعد عثمان وابو سيف يوسف والفريد فرج ومحروس سليمان عضو جبهة المعلمين التي قادت اضخم اضراب في تاريخ المعلمين عام 51 وكانت ثمرته نقابة المعلمين، ومحمد سيد احمد واحمد عباس صالح. كوكبة تلخص في شخوصها ورموزها قوى الثورة الوطنية المصرية الراهنة من عمال وفلاحين ماركسيين وشيوعيين وناصريين ووطنين وديمقراطيين.

لم تذهب نضالات هؤلاء وبطولاتهم وتضحياتهم، واجيالهم سدى، رغم الردة الغاشية. فهي التي تهز اليوم بقوة الطغمة الحاكمة، والطاغية ونظامه. لانها سقطت في ارض خصبة ولادة. وها هم اولادهم واحفادهم، اجيالا وراء اجيال، يتصدون بنفس القوة والاصرار رغم كل صنوف التعذيب الاجرامي.. علينا ان نضع سلاح التاريخ بأيديهم، امضى سلاح للوعي.

الراحل احمد عبد الله كان القائد الابرز والمفوه لما يسمى انتفاضة السبعينات وجيلها. وهي عصب الثورة الراهنة طلائعهم خرجت في حركة 68 التي ولدت في 9 و10 حزيران (يونيو) 67 جماهيرية تلقائية، ولكنها تحولت في 68 الى حركة جماهيرية واعية ومستقلة. جاءت شراراتها الاولى من الضواحي العمالية، في حلوان وشبرا وقاعدتها في المصانع الحربية وحركتها الاحتجاجية، رغم ضغوط السلطة. ورفعت شعار «لا رحمة للخونة» و«لا اشتراكية بدون حرية». وبعدها اشتعلت مظاهرات الكلية تطالب بالسلاح، وصدر بيان 30 آذار (مارس) وانعقد مؤتمر الخرطوم بلاءاته. ولا ريب في ان مولد هذا التيار السياسي الطلابي العمالي المستقل كان هو الصدى ورجع الصدى البعيد للمرحلة الوطنية الكبرى 1946 ـ 1951 و«لجنة العمال والطلبة» عام 46 التي اسقطت مشروع صدقي ـ بيفن الخياني. والتي بدت في الظاهر انها اختفت وزالت.

اما حركة السبعينات التي تقرن باسم الراحل الكبير فقد انفجرت مع مظاهرات الطلبة الحاشدة في الجامعات وامتدت الى المدارس في كانون الثاني (يناير) 72 عقب خطاب السادات في 13 كانون الثاني (يناير) بعد انقضاء عام الحسم 71، والذي وعد فيه بخوض المعركة ضد العدو الصهيوني القابع على ضفاف القنال، وانهاء حالة اللاسلم واللا حرب، والتي كانت تجثم على كل الصدور والقلوب. وفي خطابه هذا في كانون الثاني (يناير) برر عدم خوض المعركة بالضباب السياسي الذي غطى المسرح العالمي اثر الحرب الهندية ـ الباكستانية.

يصف ديفيد هرست الصحافي العالمي في كتابه عن السادات الجو السائد في تلك الايام في ظل سياسة اللاسلم واللاحرب تحت عنوان «سمك لبن تمر هندي» مستعيرا التعبير المصري الاصيل لوصف الفوضى واللامعقول المهيمن حينذاك. ففي نفس الوقت الذي يؤكد السادات على دعاواه ان شيئا لن يدفعنا الى التسليم والتضحية بمبادئنا، وان ما اخذ بالقوة لا يسترد الا بالقوة يرفع الى مجلس الشعب بقانونه «لحماية الوحدة الوطنية» و«قانون الشائعات» للتضييق على الحريات وقمع حركة الطلبة والشارع تحت شعار «لا صوت يعلو على صوت المعركة».

ويذكر هرست ان هذه القوانين ادت الى العكس، فانفجرت النكت وازدهرت الشائعات.. وتوالت اللعبة وراء اللعبة.. الخدعة وراء الخدعة: فبعد مراكز القوى، جاء تصحيح اخطاء الثورة «بسيادة القانون» و«الرئيس المؤمن» و«اخلاق القرية» ثم جرى طرد الخبراء السوفييت وراجت الشائعات والشكوك في علاقات سرية وتقارب مع الامريكيين. كان السادات يمارس لعبة «الجلا جلا» بتعبير ديفيد هرست، وتعمقت الهوة بين عالمين: عالمه، عالم الجلا جلا وعالم الحقيقة التي يعيشها الناس. فتزايد السخط وانحطت المعنويات وساد التشوش والارتباك واصبحت حالة اللاسلم واللاحرب بمثابة السرطان الذي يفتك ببنية المجتمع. وتساءل الناس اين سيتصاعد الدخان المقبل. من كثرة الحرائق التي توالت ودمرت مباني عامة وتراثية، حريق الاوبرا وقصر الجوهرة. كما شب حريق في مصنع النسيج بالمحلة الكبرى، وعدد من المنشآت الاخرى، وكانت تعزى الى ماس كهربائي والحقيقة انها كانت للتغطية على سرقات، اصبح الفساد وباء ووصل الى اعلى المستويات.كما امتد السرطان الى نقطة الضعف الرئيسية في مصر. ففي تشرين الثاني (نوفمبر) 72 احرقت كنيسة الخانكة.

عقب الخطاب مباشرة هبت ثورة الطلبة وكانت محركاتها صحف الحائط والصحافة الطلابية في الجامعات التي تولاها اليسار، وتمت تعبئة الجميع حول مطلب الديمقراطية. وعلقت الملصقات وارتفعت المطالبة باعداد الجبهة الداخلية للحرب التحريرية واقتصاد الحرب ورفض الحلول الاستسلامية وقطع العلاقات مع امريكا ودعم نضال الشعب الفلسطيني.

اضرب الطلاب واعتصموا في جامعة القاهرة وامتد الاضراب الى بقية الجامعات وتشكلت اللجنة الوطنية العليا في 20 كانون الثاني (يناير) 72 بالانتخاب، بتصويت المندوبين عن اتحادات الطلبة ومن اللجان الوطنية العليا في كل جامعة وانتخب على رأسها مقيدنا الكبير.

هزت اليقظة الطلابية مصر من اقصاها الى اقصاها وفي 24 كانون الثاني (يناير) اقتحمت الشرطة الجامعة وقبضوا على المعتصمين فاحتل الطلبة ميدان التحرير وكتب امل دنقل قصيدته العصماء «الكعكة الحجرية»: ايها الواقفون على حافة المذبحة.. اشهروا الاسلحة.. المنازل اضرحة.. والزنازن اضرحة.. فارفعوا الاسلحة.. واتبعوني! انا ندم الغد والبارحة.. رايتي عظمتان وجمجمة.. وشعاري الصباح!

كما غنت قاهرة المثقفين مع الشيخ امام واشعار احمد فؤاد نجم.. في تجمعات شبه سرية.

وفي 28 كانون الاول (ديسمبر) اعتقل حوالي الفي طالب واغلقت الجامعات ومعهم كتاب وصحافيون. وفي 31 كانون الاول (ديسمبر) تحدث السادات في مجلس الشعب ليتهم الحركة، ويتهم اليسار بالتآمر على الحكم، فهم يمدون المراسلين الاجانب، بالاكاذيب ويريدون اقامة دكتاتورية البروليتاريا!

ولا يزال جيل الثوريين الذي خاض غمار هذه الانتفاضة جيل السبعينات والذي وضع برامجها وصاغ شعاراتها، يحتل الصدارة في النضال الراهن، يدعمه ويؤازره من بقي على قيد الحياة من اجيال اليسار السابقة. فهو الذي كان له الفضل في ابتداع «كفاية» او الحركة المصرية من اجل التعبير وتفريعاتها من الادباء والفنانين وغيرها. فهذا الشكل من التنظيم الاحتجاجي حمل نطفة الجبهة وارهاصات التنظيم الحزبي المتعدد والمستقل والوحدة في نفس الوقت. وقد فاجأ النظام وعراه وكشف عن هزاله، وحقيقته الباطشة في نفس الوقت، وكسر وهذا هو الاهم، حاجز الخوف، وفتح ثغرة لقوى التغيير، مهما كانت ضآلة العدد، للنزول الى الشارع، والتظاهر والاعتصام وغيره من اشكال النضال الجماهيري. هذا ورغم مضي الزمن فقد ظل القائد التاريخي لهذا الجيل فقيدنا احمد عبد الله يحظى بالاحترام والتقدير لمكانته السياسية والعلمية من كل اجيال الثوريين السابقة واللاحقة.

ولكن هذه النضالات الضخمة التي قام بها جيل النكسة منذ 68 وملأ بها الفراغ الذي خلفه غياب عبد الناصر وتنظيمه العاجز الاتحاد الاشتراكي الذي وقف فاغرا الفاه امام الاحداث المتلاحقة منذ الهزيمة لم تنطلق من فراغ، وقد كان عمادها وعمودها الفقري الطلبة والعمال، كان وراءها الاساس العميق الذي ارساه جيل المناضلين الذين سبقوهم من رواد اليسار الوطني والديمقراطي والماركسي الشيوعي، في الاربعينات والخمسينات والستينات والذين فقدنا بعض رموزه واعلامه اخيرا وكان يوسف درويش واحمد نبيل الهلالي من ابرزهم.

يوسف درويش هو المؤسس الابرز للحركة العمالية الحديثة بعد جيل ثوار بداية القرن وكان له الفضل الاول بين مناضلي منتصف القرن الماضي في نشأة حركة عمالية مستقلة، وكان آخر ما كتب قبل رحيله في آذار (مارس) الماضي كتاب عن نشأة وجذور الحركة العمالية في مصر. شاركه في هذا البناء مناضلون عماليون اشداء في مقدمتهم طه سعد عثمان المناضل والكاتب والشاعر والمؤرخ العمالي ومحمد يوسف المدرك ومحمود العسكري. وكان انجازه الاكبر قبل ثورة يوليو في منطقة شبرا الخيمة وكانت هي القاعدة الصناعية الاولى حينذاك خاصة في صناعة النسيج. وكان نضاله يقوم على قاعدة علمية معروفة، ان الوعي السياسي للطبقة العاملة غير الوعي الثقافي لا يمكن ان ينشأ ويتطور في صفوفها تلقائيا، بل هي في حاجة الى من ينقله اليها من خارجها وهذا هو دور المثقف الثوري الذي قام به يوسف درويش خير قيام في بداية الاربعينات.

وقصة حياة احمد نبيل الهلالي الذي كان يلقب بحق بالقديس والذي رحل عنا ونحن في اشد الحاجة الى شخصه وشخصيته الاخاذة ودوره الذي لا غنى عنه في ساحات المحاكم وفي ميادين النضال الوطني متعدد الجوانب، سياسي واجتماعي وثقافي وفي مجالات حقوق الانسان والعمل الحزبي والنضالي اليومي، وحتى في النكتة اللماحة والضحكة التي لا تفارقه ابدا، ففضلا عن دفاعه دون اجر في ساحات المحاكم عن العمال او المعذبين في السجون ضحايا انتهاك حقوق الانسان وكرامته من مختلف الانتماءات السياسية يمينا او يسارا. ومجرد مراجعة عناوين الكتب والكتيبات التي خلفها لنا فهي تكشف عن تعدد وتشعب مجالات اهتمامه وجهاده: «النظام المصري في قفص الاتهام.. دفاع عن حرية الرأي: الرأي ـ العقيدة ـ العمل...» ـ «حول العمل الجبهوي» ـ «هدفنا انقاذ الوطن لا انقاذ النظام» ـ «من اجل جبهة الانقاذ الوطني» ـ «قانون شركات قطاع الاعمال العام.. معركة من؟ ضد من..» ـ «الحريات الديمقراطية وقوانين الطوارئ» وآخرها ما نشرته «القدس العربي» مشكورة بتاريخ 2006/6/27 كتاب بعنوان «اليسار الشيوعي المفترى عليه ولعبة خلط الاوراق» الذي صدر في القاهرة اخيرا. تعجل نبيل في الرحيل عنا، ولعله اراد بانسانيته المعروفة ان يؤنس شريكة حياته ونضاله، الراحلة فاطمة زكي عضوة «لجنة العمال والطلبة» عام 46 والتي سبق الحديث عنها والمناضلة النسائية الرائدة.

ولا يقف دور الراحلين الكبيرين يوسف درويش واحمد نبيل الهلالي عند هذا، بل هناك ما هو اكبر بكثير، فقد اتاح المناخ الثوري الذي وفرته هبة السبعينات الفرصة امام الثوريين القدامى من جيل الاربعينات والخمسينات، وفي المقدمة منهم الراحل الكبير ميشيل كامل الذي رحل عام 93، مع يوسف درويش ونبيل الهلالي وعدد كبير من كوادر هذه الفترة (الاربعينات والخمسينات) من مراجعة وتصحيح خطأهم التاريخي الجسيم، والذي وقعوا فيه فور خروجهم من معتقلات 54 ـ 64 بقرار حل الحزب الشيوعي والاندماج والذوبان في الاتحاد الاشتراكي. فعلى الرغم من وطنية النظام الناصري وتقدميته التي ليست محل شك، إلا ان منظوراته القومية كان يشوبها بعض التخلف، ترى في المجتمع والشعب جسما مسمطا متماثلا، وليس كائنا اجتماعيا، يتشكل من طبقات وفئات متعددة المصالح والرؤى، تصل صراعاتها احيانا الى حد التقاتل. والطبقات الوطنية فيها لا تأتي وحدتها من اعلى، ومن خلال طمس معالم هذه الصراعات ونفيها، وانكار التعددية والاختلاف، ومن ثم «كلنا هيئة التحرير» او «الاتحاد القومي» او «الاتحاد الاشتراكي»، بل تأتي من اسفل، بالاعتراف اولا بهذه التعددية وبالمصالح المختلفة مع البحث في نفس الوقت عن نقاط الالتقاء والاتفاق. ومن هنا لا بد ان تقوم وحدة القوى الوطنية على اساس التمثيل الحر والتحالفات والجهات الديمقراطية. هذا المفهوم القومي المتخلف أدى في الواقع الى محاولات فرض الحزب الواحد «الاشتراكي» او الحزب القائد «البعثي»، ومن بعد الى هيمنة الاجهزة السلطوية البيروقراطية والمخابراتية، وانتهت الامور الى دكتاتورية فعلية تسلب الجماهير حقها الطبيعي في التعبير الحر والحركة صيانة لمصالحها. وكله مع سلامة النوايا والطوايا والاهداف الوطنية! وقد رأينا كم وقف هذا الاتحاد الاشتراكي عاجزا مشلولا امام المحاولة الانقلابية الساداتية في 15 ايار (مايو) رغم انها كانت في تمام الوضوح منذ اللحظة الاولى.

كانت دعوة هؤلاء الرواد لاعادة قيام الحزب وبنائه من جديد، لا لأنه سيفعل المعجزات او رفضا للناصرية، بل تمسكا بالمبدأ الذي لا غنى عنه في التعبير الحر والحركة لجميع الطبقات والفئات الوطنية، لأن الاعتداء على حق أي جماعة منها، هو اعتداء على الجميع.

وعندما وقف يوسف درويش ونبيل الهلالي ورفاقهم في السبعينات امام جهاز المدعي الاشتراكي ومحكمته، بتهمة اعادة تكوين الحزب الشيوعي، نطق القاضي الكبير المنتدب من السلطة الساداتية بالحكم بالتحفظ أي الاعتقال عاما قابلا للتجديد. كان يقرأ في الحقيقة امرا جاءه مباشرة من اجهزة الأمن والمباحث العامة دون أي دليل. وهو ما يعني خطورة قضية استعلاء القضاء، وكم هي قضية قومية، فبقاء حق انتداب القضاة بيد السلطة التنفيذية كما هو في القانون الجديد، هو الطريق الأقصر لتلويث السلطة الثالثة.

وفي الثمانينات والتسعينات عندما صعدت موجة العنف والارهاب الاعمى الاصولي السلفي تزعم ثلاثتهم ميشل كامل ويوسف درويش ونبيل الهلالي رفض أي مهادنة، او انطواء تحت جناح السلطة بدعوى خطر الارهاب. وحملوا السلطة وسياسات مبارك ونظامه، نظام كامب ديفيد التبعي وسياسات الانفتاح وتقيد روشتة صندوق النقد الدولي مسؤولية الارهاب الاصولي المتصاعد، بسياسات الافقار والبطالة. كانوا وطنين ديمقراطيين حتى النخاع، ومع ذلك لا زلنا نسمع من يردد ان الماركسيين والشيوعيين ليسوا وطنين لأنهم امميون!!

واسمح لنفسي بأن انطق بلسانهم نيابة عنهم لعل ذلك يثلج صدورهم في مرقدهم الاخير، بتهنئة ابطال عملية كرم سالم العبقرية، التي وضعت الكيان الصهيوني ومن ورائه كل الحكام العرب الاتباع والعملاء في مأزق، قبل ان نضع الشعب الفلسطيني. وبعد ان لمست عن قرب كم كانت قضية شعب فلسطين هي همهم وشاغلهم طوال نضالاتهم ضد الامبريالية والصهيونية. وكان يوسف درويش هو اول من عرفني في الاربعينات بحقيقة الصهيونية والكيان الصهيوني.

* كاتب من مصر يقيم في باريس

خبر «صعقني»!

جواد البشيتي*

■ لقد صعقني الخبر؛ وكم تمنّيت أن يكون عارياً من الصحة، فالشقيق الكبير ـ الوسيط حذّر من أنّ إصرار الفلسطينيين الذين في وسعهم حل مشكلة الجندي الإسرائيلي الأسير على أن تلبّي حكومة اولمرت شروطهم ومطالبهم «غير الواقعية» للإفراج الفوري عنه سيؤدي إلى إيقافه مساعي وجهود الوساطة التي يبذلها، والتي لا يملك من «خيار» غيرها، وإنْ كانت أقرب إلى «الاضطرار» منها إلى «الخيار». وقد كان للوسيط المصري مقترحاته لحل المشكلة.. مشكلة شاليت. وتنصّ على «الإفراج عن الجندي المختطف» في مقابل خروج الجيش الإسرائيلي من المناطق والمواقع التي عاد إلى احتلالها في قطاع غزة بعد (أقول «بعد» ولا أقول «بسبب») أسر شاليت.. وفي مقابل «الإفراج، بعد ذلك، عن معتقلين فلسطينيين».

تمنّيت أن يكون الخبر عارياً من الصحة؛ لأن «الوهم» يخبرنا أن تلك الوساطة، استمرارا ونجاحا، هي ما يحتاج إليه الفلسطينيون في المقام الأول، ولسوف يؤدي فشلها ـ لا سمح الله ـ بسبب ذاك «التعنّت» الفلسطيني إلى إحباط ذاك المسعى العربي الخيِّر لدرء «كارثة إنسانية كبرى» عن «الأشقاء الفلسطينيين»، فيَصْدُق فيهم القول «الجاهل عدو نفسه»!

مقترحات الوسيط تلك تكاد أن تجعله وسيطا يشبه في وساطته الولايات المتحدة، فمعناها إذا ما ترجمناها بلغة الواقع إنما هو «الإفراج الفوري وغير المشروط» عن شاليت مع بقاء حكومة اولمرت حرة تماما في شن مزيد من الحرب على الفلسطينيين، وعلى قطاع غزة على وجه الخصوص، فليس في المقترحات ما يمنع إسرائيل من اتخاذ الحرب وسيلة لتذليل العقبات الفلسطينية (أي المقاومة الفلسطينية في وجهيها العسكري والسياسي) من طريق الحلول الإسرائيلية الانفرادية (إذا ما ظل الفلسطينيون يرفضون التفاوض السياسي طريقا إلى قبولها من حيث الجوهر والأساس).

لقد «دخلوا» ليصبح إخراجهم، أو خروجهم، من تلك المناطق والمواقع إدخالا لعنصر جديد في «المقترحات» لعلّه يُظْهِرها على أنها «عادلة» نوعا ما. أما «الإفراج، بعد ذلك، عن معتقلين فلسطينيين» فليس له من أهمية تُذْكَر، فعبارة «بعد ذلك» قد تعني «بعد سنوات من الإفراج عن شاليت»؛ وعبارة «معتقلين فلسطينيين» قد تعني، في المقام الأول، الوزراء والبرلمانيين الفلسطينيين الذين اعتقلتهم إسرائيل بعد أسر شاليت. إن كل ما تلا عبارة «في مقابل» لا يصلح إلا لستر عورة المقترحات وهي «التوسُّط» في سبيل الإفراج الفوري وغير المشروط عن شاليت، الذي لم يخبرنا «الوسيط» عن السبب الذي يجعله في قداسة لا تعدلها قداسة. لماذا يحق لإسرائيل الاستمرار في أسر نحو عشرة آلاف فلسطيني، بعضهم من النساء والأطفال والمرضى، ولا يحق للفلسطينيين الاستمرار في أسر ولو جندي إسرائيلي واحد؟!

لقد غدت سياسة «الكيل بمكيالين» عربية أيضا، فكيف لنا أن نلوم الولايات المتحدة وننتقدها؟!

إسرائيل، في صراعها مع الفلسطينيين، والأعظم في أسبابه، على ما يُظن، من أسر شاليت، لا تجيد غير «فن الإكراه»، أي الحرب. أما العرب فلا ينطق منهم بعد صمت إلا الناطق كفرا.. إلا الذي يلبس لبوس «الوساطة» في ممارسته «فن الإقناع»، الذي فيه، وبه، تُقْطف الثمار السياسية لممارسة «فن الإكراه» ذاك!

إذا أردتم «الوساطة»، على بؤس هذا «الخيار» الذي ليس بـ «خيار»، فاعدلوا ولو قليلا في تسوية النزاع بين شقيقكم وعدوكم. ولو كان لي أن أدل آسري شاليت على خير حل لدللتهم إلى الحل الآتي: ليأت الوسيط العربي إلى قطاع غزة، وليتسلَّم شاليت، وليتصرَّف بهِ، من ثم، كما يشاء.. ليقدِّمه لإسرائيل على طبق من فضة!

ولو كان لي أن أدعو الوسيط إلى خير موقف في أسوأ زمن عربي لدعوته إلى أن يصمت مع الصامتين، ويتفرَّج مع المتفرجين، فـ «الوساطة» إنما هي «فن الإقناع» في امتداده العربي لـ «فن الإكراه» الإسرائيلي، وهي الفعل الذي يوافق القول «البليغ»: إذا لم تستطع هَزْم عدوكَ فانضم إليه!

* كاتب ومحلل سياسي فلسطيني ـ الاردن